

روحية العطاء وقيمته



لقد اعتبر الإسلام العطاء من ميزات المؤمن، هو جزءٌ من إيمانه وتقواه، ولذلك عندما تحدث عن المؤمن قال: (إِنَّ زَمَنًا لَمْ يُمْضُ مِّنْهُنَّ السَّاعَاتُ إِلَّا وَكَرَّ الْقُلُوبُ بِهِمْ وَإِذَا تَلَيَّكَ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * السَّاعَاتُ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَنَزَعْنَاهُمْ يَنْفِقُونَ) (الأنفال/ 2-3). فالمؤمن لا يقف عند حدود العبادات، بل يحوّل العلاقة بالآخر إلى خدمة لعياله، فالخلق كلّهم عيالٌ له، وأحبّهم إليه أنفعهم لعياله.. لهذا كان الإنفاق من ميزات المتّقين: (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * السَّاعَاتُ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ وَالْغَيْظِ وَالْعَفَا فِي عَنَنِ النَّفْسِ وَالْإِحْسَانِ يُحِبُّونَ السَّاعَاتُ) (آل عمران/ 133-134). هم ينفقون في كلّ الحالات؛ في اليسر والعسر، ينفقون حُبًّا وعفواً وتسامحاً، كما ينفقون مالاً وطعاماً.. فكلّهم عطاء. عندما تحدث الإسلام عن العطاء، لم يرد له أن يكون عطاء الفرد، بل دعا الأُمّة المسلمة أن تكون أُمّة الخير في تعاملها حتى مع الذين يختلفون معها: (وَلَتَكُنَّ مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (آل عمران/ 104). وأراد أن تكون الأُمّة التي تمدّ جسوراً مع الأُمم الأخرى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ) (آل عمران/ 64). وأراد لها أن تكون الأُمّة التي تتفاعل مع بقيّة الحضارات: (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) (الحجرات/ 13).

لهذا نجد في التشريع الإسلامي تأكيد العطاء في الواجبات المالية من الخمس والزكاة: (وَأَعْلَمُوا أَن زَمَنًا مِّنكُمْ مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) (الأنفال/ 41). إنّ الله فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقيرٌ إلّا بمنع الأغنياء، وإنّ الله محاسبهم ومعذبهم عذاباً أليماً. لكنّ هذا التأكيد لم يقف عند حدود المال، فهناك زكاة القدرة وهي الإنصاف، وزكاة الجمال

وهي العفاف، وزكاة الصدقة وهي السعي في طاعة الله، وزكاة الشجاعة وهي الجهاد في سبيل الله. ولم يقف الإسلام عند حدود الواجبات، بل حثَّ على المستحبات: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ) (التوبة / 103)، لكنَّه لم يرد للصدقة أن تبقى في حدود المال، ففي حديثٍ لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «على كلِّ مسلمٍ في كلِّ يوم صدقة». قيل: ومَن يطيق ذلك يا رسول الله؟ قال: «إماطتك الأذى عن الطريق صدقة، وإرشادك الرجل إلى الطريق صدقة، وعيادتك المريض صدقة، وأمرك بالمعروف صدقة، ونهيك عن المنكر صدقة». وورد أيضاً: «صدقة يحبُّها الله؛ إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا، وتقارب بينهم إذا تباعدوا»، «أفضل الصدقة صدقة اللسان»، «عونك للضعيف من أفضل الصدقة»، «أفضل الصدقة إيراد الكبد الحرَّى»، «تبسُّمك في وجه أخيك صدقة». وكان الإمام عليّ (عليه السلام) يوصي أصحابه: «بادروا بعمل الخير قبل أن تشتغلوا عنه بغيره»، «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك».

لم يرد الإسلام للعطاء أن يحدَّ بحدود الزمان والمكان، ولا المذهب والدين: (وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) (النساء / 36) ولا يَنْهَهاكُمْ إِلَّا عَنِ الذَّيْنِ لَمْ يُقَاتِلْواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (الممتحنة / 8). ابذل لأخيك دمك ومالك، ولعدوك عدلك وإنصافك، وللعامَّة بشرك وإحسانك، هذا ما يعلمنا إيَّاه إمام المتقين (عليه السلام): «يا كميل، مرَّ أهلك أن يروحوا في كسب المكارم، ويدلجوا في حاجة مَن هو نائم».